المحور الخامس: النظرية السياسية

– مفهوم و مكونات النظرية:

مفهوم النظرية: هي مجموعة مترابطة من المفاهيم ة التعريفات و القضايا التي تكون رؤية منظمة للظواهر، عن طريق تحديدها للعلاقات بين المتغيرات، بهدف تفسير الظواهر، و النظرية ليست هي أداة مجردة بل على العكس فإنها تحمل خلفيات فكرية و سياقات اجتماعية و ثقافية و تاريخية لأولئك الذين عملوا على بنائها و صياغتها.

إن تطور حقل التنظير في العلاقات الدولية ناتج عن تأثير عدّة دوائر، هي التغيرات و المناقشات حول الموضوع نفسه، و ثانياً تأثير التطورات الحاصلة في العالم، و ثالثاً تأثير الأفكار الجديدة في ميادين العلوم الاجتماعية الأخرى، و الشيء المهم الأخر هو تأثير إسهامات أو الأفكار السياسية للفلاسفة، اللذين أصبحت إسهاماتهم بمثابة تقاليد أساسية في مجال النظريات في العلاقات الدولية و هم توماس هوبز و جون لوك و ايمانويل كانط و مكيافيلي و غيرهم، بحيث أصبحت الهوبزية رمز للنظريات التي تعتمد على القوة و اللوكية رمزاً للتنافس و الكانطية رمزاً للتعاون.

مكونات النظرية: إن دراسة نظريات العلاقات الدولية تستلزم لفهمها و الإحاطة بها التعريف بمكونات المعرفة الأساسية للنسق الذي ظهرت فيه، إذن النظرية هي انعكاس أو نتاج لمفهوم معين للعلم، و هي تتحرك في إطار نموذج معرفي وفق منهج معين، و من ثم فإن دراسة هذه المفاهيم في بيئتها و تطورها يعد أفضل الطرق لتقويم أي علم من العلوم.

المفاهيم هي حجر الأساس في بناء النظريات، و هي الرابط بين العالم و موضوعه، ففي كتابه (إلهام العلم) كتب تومسون: ((أن كل العلوم تعتمد على المفاهيم، فهي الأفكار التي حملت الأسماء و هي التي تحدد السؤال الذي يسأله الباحث، و تحدد كذالك الإجابة عليه، و هي البناء الأساس الذي يؤسس عليه النظريات))، فالعلم دائماً يبدأ دائماً بتشكيل المفاهيم التي تصنف العالم، إذ أنه قبل شرح الظواهر لابد من وصفها، فالسؤال لماذا لا بد أن يأتي بعد ماذا الذي يجاب عليه من خلال إطار مفاهيمي يشخص و يصف ز ينظم و يكمم بالألفاظ أي ظاهرة، فالمفهوم هو القاعدة الأمبريقية للعلم، لذالك لا بد من التحرك وراء المفاهيم حيث لا يتقد العلم ما لم يتم التحرك فيما وراء صياغة المفاهيم، كما أن المفاهيم عي التي تساعدنا على نقل ما توصلنا إليه من نتائج علمية، فهي الواسطة لتبليغ الحقائق العلمية.

المفهوم: لفظ عام يعبر عن مجموعة متجانسة من الأشياء و هو عبارة عن تجريد للواقع يسمح لنا بأن نعبر عن هذا الواقع من خلال هذا خلاله، و هو تصور ذهني لواقع معين، فهم ليس الظاهرة السياسية بل مجموعة التصورات لأوضاع تلك الظواهر، فحينما نقول نظام سياسي ليس المقصود به نظاماً سياسياً مادياً، لكن نقصد به البناء الذي يحدث فيه التفاعل السياسي و حينما نتحدث عن السلطة السياسية لا تعني سلطة معينة و لكن نقصد أشكال احتكار وسائل القهر السياسي.

التعاريف:هي الوسيلة لإضفاء الدقة و الوضوح على المفهوم، فإذا كان المفهوم تعبيراً موجزاً يدل على ظاهرة ما فإن التعريف هو المناظر المعادل للمفهوم، غير أنه يتميز بخاصية الشرح و التحليل للظاهرة، ليجعلها أكثر قابلية للفهم.

التعريف الاسمي: هو عبارة تشرح أو تحدد أو تشير إلى الشخص الذي أطلق مفهوم معين يستخدمه في تحليلاته،و بعد ذالك يتبعه الباحثون بالقبول و الموافقة و الاستخدام، أي تحض بالاتفاق، لكن يشترط في أن يكون صائغ التعريف الإسمي من أهل الاختصاص في ميدانه.

التعريف الحقيقي: يعمل على إظهار خصائص الشيء الذي يعرفه و كذالك مكوناته، بمعنى آخر فإن التعريف الحقيقي هو المتغير التابع، في حين أن الواقع و خصائصه و مكوناته هو المتغير المستقل.

التعريف الإجرائي: و هو يقصد أن المفاهيم لا يمكن تعريفها و تحديدها إلاّ من خلال القياس، أي هدفه المزيد من الدقة و الوضوح، فعلى سبيل المثل يمكن تعريف الحرب من خلال معايير كمية يمكن قياسها مثل: عدد القتلى، حشد القوات و التعبئة العامة و غيرها من المؤشرات.

3- الفرضيات : الفرض في مدلوله المنهجي يعني الإجابة المفترضة، بمعنى أن الباحث بملاحظته سير الظاهرة يتصور حقيقة معينة يفسر بها الواقع، و هذا التصور هو إجابة مفترضة و هو الفرض.

4- الوصف: فالوصف او الدراسات الوصفية تستهدف إعطاء صورة كلية عن الظاهرة موضوع الدراسة قصد استكشافها، تمهيداً لوضع فروض و إجراء اختبارات أكثر تعمقاً، و تشمل البحوث التي تتناول وصف النظم السياسية في دول معينة أو الوصف العام للسياسة الخارجية لدول معينة.

5- التفسير: التفسير ركن أساسي في البناء النظري، بل أن هته المرحلة تسخر كل المستويات السابقة الأخرى لأجله بسبب أن جل المناهج و الاقترابات تستهدف التفسير بالدرجة الأولى، أي تسعى إلى إزالة اللبس و الغموض عن الظاهرة، و كشف العلاقات و الارتباطات التي تتحكم في الظواهر(اختبار نظرية أو إثبات فرضية).

6- التوقع و التنبؤ: الإنسان مصبوغ يحب التطلع إلى اكتشاف المجهول و استشراف المستقبل، فالمتخصصون هم أشد حرصاً على استشراف المستقبل، وفقاً للمناهج العلمية التي يتبنونها، فالتنبؤ بما سيكون هو بمثابة اختبار لمجموعة من المتغيرات أو الظواهر أو أحداث تقبل الملاحظة و المشاهدة، لهذا تكون تلك التنبؤات مصاغة في شكل قانون أو نظرية علمية.

بناء النظرية:

من خلال تبيان المكونات الأساسية لأية نظرية، كيف يتم بناء النظرية؟ و ما الذي يتطلبه التفكير النظري من الباحثين للوصول إلى التفسير و التنبؤ؟.

قدم جيمس روزنو تسعة نقاط جوهرية للاكتساب عقلية التفكير نظرياً هي:

1- الابتعاد عن التعامل مع القضية باعتبارها محاولة لبلورة تعريف جاهز للنظرية.

2- الوضوح. هل الهدف من الوصول إلى نظرية علمية أو معيارية، أي الواقعية في الطرح.

3- القدرة على طرح الفرضيات التي تستند إلى أسس علمية و منظمة و منسقة.

4- أن يكون ميالاً إلى السؤال على كل حالة أو حدث .

5- القدرة على التحكم في الموضوع .

6- متسامح مع الغموض و يكون مع مبدأ القابلية للتكذيب و عدم الثقة في الأحكام.

7- أن يكزن مرناً ذو روح علمية.

8- التخلي عن أي إيديولوجية.

9- أن يكون مستعداً لأن يكون مجرب مخطأ و احتمال الخطأ يكون وارداً.

تصنيف النظريات:

هناك تقسيمات مختلفة و كثيرة تعتمد على معايير مختلفة، منها من يعتمد على معيار الشمولية أو معيار المنهج المعتمد أو معيار القدرة على الوصف التنبؤ و التفسير.

- يصنف ولتز النظريات إلى نظريات نظامية و أخرى مختزلة، بناءاً على علاقتها بمستويات التحليل عنده، و هي الفرد الدولة و النظام الدولي، و عليه فإن النظريات التي ترتكز على القضايا التي تهتم بالفرد على المستوى القومي الدولة هي نظريات جزئية أو مختزلة، و النظريات التي تتفاعل على المستوى الدولي هي نظريات نظامية أو هيكلية.

– هناك تصنيف آخر للنظريات بناءاً على المنهج المتبع إلى نظرية تجريبية التي لها علاقة بالحقائق، و تقدم التفسير للظواهر بالملاحظة و الفرضيات التي تخضع للفحص، و النظرية المعيارية التي تتناول القيم و على العكس سابقتها فإن فرضياتها لا تخضع للفحص.

– كما أن هناك تصنيف آخر يصنفها على أنها:

1– النظرية التاريخية الوصفية: و التي تبحث عن التعميمات الواقعية حول الماضي و الواقع الحالي.

2– النظرية المعيارية القيمية: تحاول أن تجيب بطريقة استنتاجيه لإجابة على كيف يمكن أن يتم تحسن الأشياء.

3– النظرية العلمية التنبؤية: و التي تستخدم العلاقات الرياضية و تحاول التنبؤ بالمستقبل.

– و هناك تصنيف آخر يصنفها إلى عامة و متخصصة.

1– النظريات الكبرى: و هي نظريات تتناول عدد كبير من المتغيرات و دراسة العلاقة بينهما، لتفسير عدد كبير من الظواهر السياسية في مجال العلاقات الدولية، و دراسة مورجانتو من قبيل هذه الجهود، فالنظريات الكبيرة تكون أكثر ميلاً إلى التعميم، بشرط أن تغطي جميع جوانب العلاقات الدولية، لكن هناك صعوبة في صياغة نظرية تستجيب لكل هذه الشروط.

2– نظريات متوسطة: هي النظريات التي تهدف إلى تفسير ظواهر أضيق من سابقتها، أو في إطار محدد من المتغيرات، و من أمثلتها في العلاقات الدولية نظريات الصراع الدولي أو التكامل الدولي، و لعل أغلب الدراسات في العلاقات الدولية تقع في نطاق هذه الجهود التنظيرية.

النظريات الجزئية: و هي أقل مستويات التحليل و أضيقها نطاقاً، و هي ترتكز على بعد معين داخل تركيب ظاهرة كبيرة، و من أمثلتها في العلاقات الدولية المقاربات النظرية في تحليل السياسية الخارجية، نظرية الردع، نظريات القوة ...الخ.

وظيفة النظرية:

1– النظرية تبحث فيما هو قائم و ليس فيما يجب أن يكون.

2– الوظيفة الجوهرية للنظرية الدولية هي لتمكيننا من تحسين و تقويم معرفتنا المتعلقة بالواقع الدولي، إما في البحث عن فهم أوضح أو لتغيير ذالك الواقع.

3– ليست النظرية بناء مجرد لم يتم صياغتها بمعزل عن الحقل السياسي، و إنما هي تعكس رغبتنا لتفسير و تقديم أفضل الحلول لمشاكل النظام الدولي.

4– النظرية تعكس تراكم المعرفة لفرع من الفروع.

5- النظرية تزودنا برؤى بديلة لتفسير الأحداث و الاستجابة لها.

6- يمكن أن تساعد على تصرف معين بناءا على توقع معين.

7- تنظم الحقائق و البيانات يمكن التعرف على جوانب الانتظام أو عدم الانتظام في التفاعلات في تلك الظواهر.

8- المساعدة في تفهم الكيفية التي تحدث بها الظواهر المختلفة التي تشكل محور اهتمام هذه النظرية.

لقد حاول الكثير من الباحثين السياسيين إرساء نظريات كبرى في العلوم السياسية تناولت مواضيع شتى، لكن الواقع خيب آمالهم، فتراجعو عن ذالك و أدركو أن التركيز على النظريات ذات المدى المتوسط أو المدى القصير هو أكثر فاعلية لأن الظواهر السياسية يصعب ضبطها و التحكم فيها، و يضاف إلى ذالك اختلاف القيم و الثقافات و السياقات التاريخية التي تحيط بالظاهرة السياسية، ز من ثم فإن التعميم يصطدم بخصائص الظاهرة السياسية.

مستويات بنية النظرية في العلاقات الدولية

1- المستوى الأنطولوجي: و هو مبحث الوجود و الماهية من خلال معرفة جوهر النظرية و الاختلاف في الإسهامات النظرية، و المراحل التي مرت و تطورت من خلالها النظرية السياسية.

2- المستوى الميتادولوجي المنهجي: من خلال البحث عن طبيعة المنهج المتبع في التحليل، فأي نظرية تعتمد أو تبني أفكارها على مجموعة سبل و أدوات منهجية معينة.

3- المستوى الإبستومولوجي: في هذا المستوى نحتاج التحليل الإبستومولوجي بمختلف مراحله (الوصف، التحليل، النقد) لفهم أوضح لمختلف جوانب النظرية السياسية، خاصة آلية النقد سواءً أكان داخلي أم خارجي من خارج المجتمع العلمي المتبني النظرية.

4- المستوى الإيتومولوجي المفاهيمي: و هو مستوى مهم لفهم النظرية السياسية، لأن كل نظرية تتكون أو تعتمد بالأساس على مجموعة من مفاهيم أساسية، لا يمكن فهم النظرية إلاّ من خلال تحديد و فهم هذه المفاهيم و التعاريف.

5- المستوى الإكسيولوجي القيمي: كل النظريات مهما كانت في العلوم السياسية تحمل بعداً قيمياً، أي جاءت لتدافع عن قيم و عن مبادئ تؤمن بها.

الحوارات النظرية في العلاقات الدولية

كانت مساهمة فلاسفة العلم كبيرة و مهمة في بلورة تطور النظريات العلمية في أي علم من العلوم، فإذا جئنا إلى تطبيق مبدأ التكذيب لـ: بوبر نقول أنه يصعب تطبيقه في مجال الدراسة في العلاقات الدولية ، بالنظر إلى صعوبة الحكم على النظريات بالتكذيب أو التصديق المطلق، هذا الأمر الذي يتلاءم أكثر مع العلوم الطبيعية، لكن أفكار كل من كوهن و لاكاتوش ساعدت على رؤية التغيرات التي تحدث داخل النماذج و البرامج البحثية من خلال نظرتي التراكم و الثورية في تقدم العلم، من خلال القول أن العلم يتطور من خلال التراكم في الظروف العادية، لكن في وقت الأزمات و فشل النظريات في تفسير الظواهر تأتي الثورة المعرفية القادرة على تفسير الظواهر الجديدة.

كان الهدف من إدخال مفهوم النموذج المعرفي إلى الحقل النظري للعلاقات الدولية هو إدخال بعض التنظيم إلى حقل العلاقات الدولية، من خلال التعامل مع المداخل المختلفة في دراسة العلاقات الدولية كأنها نماذج معرفية مختلفة، و على هذا الأساس أصبح هناك أكثر من نموذج معرفي واحد و هي: النموذج المعرفي الواقعي، و ألتعددي و البنيوي أو الراديكالي، جوهرها هي الإجابة عن ثلاثة أسئلة: ما هي طبيعة السياسة العالمية؟ و ما هي وحدات التحليل على المستوى العالمي؟ و ما هي أهم المشكلات التي تؤدي إلى تفجير الأوضاع العالمية؟.

و بناءاً على كل هذا فإن تاريخ الدراسة النظرية للعلاقات الدولية يمتلك أكثر من نموذج معرفي غبر كل مراحل تطور التنظير، تبلورت عدّة اختلافات بين هذه النماذج المتعاقبة في أربعة أنواع من المناظرات، أولاهما كان بين المثالية و الواقعية، و ثانيها بين التقليدية و السلوكية، و ثالثها كان بين التعددية و الماركسية و الرابعة كانت بين الحداثة و ما بعد الحداثة أي بين السلوكية و ما بعد السلوكية.

إن التطور النظري يتم من خلال التزاوج بين التاريخ الداخلي و التاريخ الخارجي لأي بناء نظري، التاريخ الداخلي هو التطور المفاهيمي و الحوار الداخلي و التجديد من داخل النظرية، أما الحوار الخارجي هو تطور النظرية في السياق الأكاديمي لدراسة العلاقات الدولية من خلال تفاعلها و حوارها مع النظريات الأخرى الموجودة في نفس الحقل المعرفي.